



القيمة الحجاجية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم
بين التراث البلاغي العربي والتداولية المعاصرة

**The Argumentative Value of the Method of Exposure
in the Holy Qur'an between the Arab rhetorical heritage
and Contemporary pragmatism**

سلطاني محمد

جامعة عمار ثليجي - الأغواط (الجزائر)، soltanimed1986@gmail.com

ملخص: يحاول هذا البحث دراسة أسلوب التعريض في التراث البلاغي العربي سواء عند البلاغيين أو عند المفسرين، مركزا على المحطات الكبرى التي توسعت في دراسته وأضافته له من جهة التنظير أو التطبيق، محاولا بيان أسس التفريق بينه وبين الكناية، قارنا كل ذلك بين التراث اللغوي العربي والبحث اللساني المعاصر ولاسيما التداولي منه بما فتحه من مفاهيم وآفاق جديدة في البحث اللغوي ولاسيما ما يتعلق بالبعد الضمني للاستعمال اللغوي. ويحاول البحث التمثيل لذلك بنماذج مختارة من القرآن الكريم، مستلهمين اللمحات الذكية للمفسرين في استنطاق الآيات واستنباط المعنى التعريضي منها، موظفين ذلك في بيان البعد الحجاجي لهذا الأسلوب البليغ الذي يربط بين بنية المقال ومقتضيات المقام وما بينهما من تعالق وثيق.

المؤلف المرسل: سلطاني محمد، الإيميل: soltanimed1986@gmail.com

كلمات مفتاحية: التعريض، الحجاج، التداولية، الاستراتيجية التلميحية، الخطاب.

Abstract: This research endeavours to study the method of exposure in the Arab rhetorical heritage, whether among the rhetoricians or interpreters, focusing on the major halts that expanded in its study and added to it in terms of theorizing or application, trying to explain the basics of differentiating it from metonymy, reading all of this between the Arab linguistic heritage and the contemporary linguistic research, especially the pragmatic of it, with what it opened of new concepts and horizons in linguistic research, chiefly with regard to the implicit dimension of linguistic use. The research tries to exemplify this with selected examples from the Holy Qur'an, inspired by the smart glimpses of the interpreters in interrogating the verses and deducing/eliciting the periphrastic meaning from them, using this in explaining the argumentative dimension of this eloquent style that links the essay structure with the requisites of the place and the tight correlation between them.

Keywords: Exposure, argumentation, pragmatics, insinuation strategy, discourse.

مقدمة:

يعدّ «التعريض» من الظواهر الأسلوبية والبلاغية التي لم تنل حظا كثيرا من العناية والاهتمام كما نالته ظواهر أسلوبية أخرى، هذا على الرغم من كثرته الملحوظة في القرآن الكريم، فلم تتجه إليه أقلام الباحثين إلا لماما، وأغلب الذين تناولوه من البلاغيين القدماء جاءت أبحاثهم حوله عبارة عن أشتات متفرقات، لا يجمعها رباط منهجي واحد، ثم إن دراستهم له جاءت تبعا، فلم يقصد بها التعريض إلا بقدر التفريق بينه وبين الكناية، أما المحدثون فلم نجد ما نستضيء به في هذا الصدد إلا دراسة إبراهيم عبد الله الخولي: «التعريض في القرآن الكريم» وهي دراسة على قيمتها الكبرى من الناحية الجديدة والتأصيل إلا أنها على طريقة القدماء في تناول التعريض.

على أن الجديد الذي ينوي هذا البحث أن يتناوله، ويسلط الضوء عليه هو تناول التعريض في القرآن الكريم من الوجهة الحجاجية، مع محاولة الكشف عن إبراز البعد الحجاجي الكامن وراء استخدام القرآن لهذا الأسلوب، فبلاغة القرآن الكريم لا تكمن في قوته الأسلوبية فقط، بل تكمن - بالإضافة إلى ذلك - في ذلك التأثير الذي يتوخى النص القرآني المعجز إحداثه في المتلقي، إذ إن قيمة التعريض الحجاجية كأسلوب بلاغي مستمدة من كونه جاء في القرآن خاصة في سياق تخاطبي يروم إما إلى تقويض خطاب الكفار، أو إلى تدعيم إيمان المسلمين، وهو بين هذا وذاك يسعى إلى تغيير وضع من خلال دعوتهم إلى

الإيمان بالله، ووحدانيته والعالم الآخر والثواب والعقاب... كل ذلك في أسلوب هو أسلوب القرآن وحده، أسلوب يزوج بين المعنى المباشر والمعنى غير المباشر، بين المعنى الحرفي الواضح والمعنى المضمّر الخفي (ومنه التعريض)، أسلوب تفنن القرآن في تشكيله، كما تفنن البلاغيون والمفسرون في رصده وتأويله.

هذا، ونحن إذ نخوض في هذا البحث، فإننا نتكئ على عكازتين منهجيتين: أولاهما ما قاله البلاغيون ولاسيما المفسرين حول التعريض دون التقيد بأقوالهم كلها، والثانية هي ما استجد من البحث اللساني الحديث لاسيما التداولي، وخصوصا الجانب الحجاجي منه، وحسبك بالتداولية أنها أماطت اللثام عن البعد العميق للغة من خلال تفاعلها بالاستعمال... وحسبك بالحجاج أنه أزال فصلا تاريخيا مفتعلا بين الأسلوب والإقناع.

ومن التفاسير التي اعتمدنا عليها في ذلك تفسيران أولهما وأهمهما «التحرير والتنوير» للعلامة الطاهر ابن عاشور، وذلك لولعه الشديد باستنباط التعريض في القرآن، حتى لكأنه قد تميز به في كتابه، إذ جعله ثاني اثنين بعد الاستئناف البياني؛ وهي ميزة له ولكتابه، وثانيهما تفسير الكشاف للزمخشري، وأما من المراجع فلم نجد إلا مرجعا واحدا مهما بعنوان «التعريض في القرآن الكريم» لإبراهيم الخولي، وهي دراسة قيمة استفدنا منها في الجانب النظري خاصة، وفي بعض النماذج التطبيقية، ولكن أضفنا له من ناحية المضمون محاولة تجلية البعد الحجاجي للتعريض في القرآن، ومن ناحية المنهج إضفاء النظر التداولي المعاصر لدراسة البعد المضمّر للخطاب ومنه «التعريض».

من هذا وذاك ارتأينا أن نسهم بهذا البحث المتواضع، وسنقتصر على ذكر نماذج من التعريض في القرآن الكريم، محللين إياها، كاشفين عن أبعادها الحجاجية... مستضيئين بما قاله البلاغيون عموما والمفسرون خصوصا.

1- التعريض في الأصول التراثية العربية:

1-1. التعريض لغة: جاء في القاموس المحيط « التعريض: جعل الشيء عريضا وهو إطالة الكلام»¹ والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض في الكلام هي التورية بالشيء عن الشيء²، وعند الأزهري «عَرَضَ بالقول إذا لم يصرح»³.

وما يستنتج من هذه التعريفات اللغوية التقريبية للتعريض هو أن له سمتين أساسيتين؛ أولاهما التوسع المستفاد من لفظ العرض، وثانيتهما سمة الخفاء المستفادة من التخلي عن طول الكلام والقصد إلى عرضه، أي من المعنى المباشر للكلام إلى المعنى غير

القيمة الجاهلية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم _____ مجلة فصل الخطاب

المباشر، وإذا ضممنا المعنيين السابقين جنبا إلى جنب عرفنا أن التعريض هو الكلام المتوسع فيه الذي يخفي في مكنونه معنى مقصودا.

2.1- التعريض اصطلاحا:

تعددت تعريفات التعريض الاصطلاحية من جهة الألفاظ غير أنها ذات معانٍ متقاربة؛ فمنهم من عرفه بأنه ضد التصريح؛ ومنهم من عرفه بأنه نوع من الكناية، وقد عرفه الراغب بأنه: «كلام له ظاهر وباطن فقصد قائله الباطن ويظهر إرادة الظاهر»⁴.

على أنه من التعريفات الدقيقة في هذا الصدد تعريف الإيجي حيث يقول: «التعريض إيهام المقصود مما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول المحتاج: «جئتكَ لأسلم عليك»⁵ وهذا التعريف من الأهمية بمكان بالنسبة لموضوعنا؛ فهو يحدد التعريض بأنه وإن لم مقصودا باللفظ إلا أن فيه إيهاما للمقصود؛ حيث أن المعرض له يعرف فحواه من خلال المقام أولا، ثم من خلال ما يترشح من اللفظ المصرح به ثانيا، ثم إنه قد أضاف قيда آخر له بأن جعله مما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا، فالتعريض بهذا الاعتبار ليس لدلالته مستند لفظي من نفس الكلام، وهذا الأمر الذي أشار إليه التهانوي في تعريفه التعريض قائلا: «التعريض تضمين الكلام دلالة ليس لها فيه ذكر كقولك ما أقبح البخل، تعرض بأنه بخيل...»⁶.

فالتعريض دلالة تفهم من عرض الكلام، وهي غير لازمة أو مستلزمة منه، غير أنها حاصلة و مترشحة عن الكلام بمجرد ذكره، وهذا الذي عناه الثعالبي بقوله: «التعريض هو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به»⁷.

فدلالة التعريض تفهم بمجرد ذكر كلام سيق بلفظه لمعنى غير مقصود للمتكلم، وسيق بمعناه له، وبذلك تفهم دلالته من عرض اللفظ أي جانبه.

3- 1- التعريض والمقام التخاطبي:

يترشح مما سبق من تحديدات البلاغيين للتعريض حرصهم الشديد على ذكر خصائص معينة له تواترت عندهم وتواطؤا عليها كـ «عرض اللفظ» و «إيهام المقصود» هي مفاهيم شديدة التعلق بمقام التلفظ وسياق الحال، إذ إن الملفوظ يقصد به معنى غير المعنى المترشح عن العبارة، هذا المعنى المراد يفهم من خلال الربط بين المقام وسياق الاستعمال، وهو الأمر الذي يجعل للتعريض صلة وثيقة بالمقام.

1-4. الفرق بين التعريض والكناية:

اختلف البلاغيون في تعريف التعريض، ولا سيما في شأن تداخله مع الكناية، وارتباطه بها، وتباينت آراؤهم فمنهم من ذهب إلى أن التعريض والكناية شيء واحد، ومنهم من جعل التعريض قسما من الكناية وآخرون ذهبوا إلى أن التعريض يختلف عن الكناية، وهذا الرأي الأخير هو الذي نتبناه لوجهته، فقد سبق أن استدللنا بقول العلوي بأنه: «المعنى الحاصل عند اللفظ لا به، وإن شئت قلت: هو المعنى المدلول عليه بالقرينة دون اللفظ»⁸.

فالعلوي يجعل التعريض ما يفهم عند ذكر اللفظ أي عند ذكر اللفظ لا به أي لا مستلزما من اللفظ كما هو شأن الكناية، فالتعريض يفهم من عرض الكلام بمعونة المقام وسياق التخاطب أما الكناية فهي آلية استدلالية مترشحة عن اللفظ الممكن به.

هذا، وإذا استعرنا عبارة القرافي في هذا الصدد فإننا نقول عن دلالة الحقيقة والمجاز والكناية والتورية أنها دلالة باللفظ⁹، في حين أن دلالة التعريض دلالة عن اللفظ، وبتعبير الأصوليين فإن دلالة الكناية دلالة منطوق، في حين دلالة التعريض دلالة مفهوم، كما أن دلالة الكناية دلالة نص، وأما دلالة التعريض فدلالة إشارة، هذا بالإضافة أن الكناية مؤشر لها بالسياق المقالي، على حين لا يتعلق التعريض إلا بالسياق المقامي. ولذلك فرّق الرازي بينهما حيث يقول: «الكناية أن تذكر الشيء بذكر لوازمه كقولك فلان طويل النجاد، كثير الرماد...، والتعريض: أن تذكر كلاما يحتمل مقصودك ويحتمل غير مقصودك إلا أن قرائن أحوالك تؤكد حمله على مقصودك»¹⁰ والرازي في هذا التعريف قد وضع يده على ملحظ هام للغاية من خلال تأكيد على قرائن الأحوال وحضورها في تمييز التعريض عن الكناية، ووظيفة هذه القرائن في توجيه المخاطب نحو المعنى التعريضي المترشح من الكلام. ولعلّ من هذا التفريق البديع للرازي قد استفاد منه حسن حبنكة الميداني، إذ يقول مفرقا بين الكناية والتعريض: «التعريض فن من القول غير المباشر يعتمد فيه غالبا على قرائن الأحوال لا قرائن المقال، وهو أخفى من الكناية، لأن الكناية لا تقتصر على الحال، بل لها من قرائن المقال ما يدل على المقصود بها»¹¹.

والحقيقة التي نسجلها هنا أن ننوه بدور المفسرين في تعريف التعريض، وتفصيل خصائصه ومميزاته وتخليصه من الكناية، وإضفاء الجوهرية للبعد السياقي عليه، لاسيما وأن هذا المصطلح والمفهوم قد نشأ عند المفسرين، وتطور في بيئتهم فهو اصطلاح قرآني

القيمة الجاهلية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم _____ مجلة فصل الخطاب

بالأصالة¹²، ولذلك فهم الذين تناولوه بالدراسة وحددوه تحديدا جليا، كما أنهم خلصوه من الكناية، وهذا الأمر غير مستبعد من رجال كان جل اهتمامهم «تحليل الخطاب» المعجز، فكانوا هم البلاغيين حقا. فقد كان الطبري ممن لهم فضل السبق في تخلص التعريض عن التصريح ثم جاء الزمخشري ففرق بينه وبين الكناية، ثم أضاف له الرازي دور قرائن الحال وأهميتها في دلالتها، ثم جاء أبو السعود ففصله عن الحقيقة والمجاز وكذلك فعل الإيجي.

فكان للمفسرين دور كبير في تبين خصائص التعريض حتى لم يعد للبلاغيين ما يضيفوه في الباب، إلا أننا نسارع إلى القول أن التفريق بين البلاغيين والمفسرين هو تفريق فني فقط، فلا يعني أن البلاغي لا شأن له بالتفسير، ولا أن المفسر بعيد كل البعد عن البلاغة، وكل ما في الأمر أن المفسرين وهم يحللون الخطاب القرآني واجهوا مادة غزيرة تتضمن حقائق ذات بهجة من الأساليب وفنون القول في القرآن منها التعريض، ولذلك جاء اهتمامهم به واضحا و متميزا، وهو الأمر الذي جعل المفسرين أسبق من البلاغيين في التنبيه إلى هذه اللفظات الثاقبة في تعريف التعريض وتحديدته من جهة، وفي بيان خصائصه وارتباطه بالمقام من جهة أخرى، فقد كانوا يغرفون من معين لا ينضب وهو النص المعجز؛ الأمر الذي جعل حديثهم عن التعريض وتفسيرهم له مرتبطا بهذا النص الخالد وفي ضوء مناره، وهو ما افتقده البلاغيون بعض الشيء لإجراء تحليلاتهم على شواهد مجتزأة من جهة المضمون والمدونة، ولتوجههم إلى الممارسة المعيارية المنطقية التي سيطرت على البلاغة في الأزمنة المتأخرة من جهة المنهج، كل أولئك رجح كفة المفسرين على كفة البلاغيين في تبين محددات التعريض وخصائصه وبلاغته.¹³

هذا من الناحية الإجمالية، غير أن مما أضافه البلاغيون مما لم يذكره المفسرون وكان ذا قيمة كبيرة بالنسبة لموضوع التعريض هو إضافتان جديرتان بالتسجيل، إحداهما لابن الأثير والأخرى للسبكي.

1-5. إضافة ابن الأثير:

إن مما أضافه ابن الأثير وكان تطورا هاما في بلورة مفهوم التعريض، وإدراك مميزاته، التفريق بينه وبين الكناية، حيث يقول: «والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي والمجازي»¹⁴، ويستفاد من هذا التفريق بكون الوصول إلى الكناية يتم عن طريق اللفظ أي بطريق المقال، في حين أن الوصول إلى التعريض يتم عن طريق المفهوم بمعونة السياق.

هذا، ويضيف ابن الأثير فرقا آخر بينهما إذ يقول: « الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة»¹⁵. فقد أرجع الفرق بينهما إلى خفاء التعريض عن الكناية، من جهة، وتركيبه عن أفرادها من جهة أخرى، وعلل الأول بكونه راجعا إلى المفهوم والفحوى في دلالة التعريض، كما علل الثاني بكون التعريض يأتي بطريق التلويح والإشارة، وهو الأمر الذي يستقل به اللفظ المفرد.

1- 6- إضافة السبكي:

لقد عرّف السبكي التعريض قائلا: «هو لفظ مستعمل أبدا في معناه مقصود به التلويح بغيره»¹⁶، يلاحظ من هذا التعريف أنه أضاف قيدين هامّين للتعريض هما الاستعمال والقصد، وهما اصطلاحان أصوليا للطابع لكنهما بالغتا الأهمية في هذا الصدد؛ وهو الأمر الذي يرتفع بهما على مستوى المنهج إلى أن يكونا من صميم التداولية التي تجعل للاستعمال والقصد الأهمية القصوى في التحليل اللغوي وفهم أبعاده.

1- 7- التعريف المقترح للتعريض:

وإذا كان لنا أن ندمج بين تعريف ابن الأثير والسبكي مما يتيح لنا النظر إلى التعريض نظرة تداولية آخذين في الحسبان قصد المتكلم وفهم المخاطب بالإضافة إلى القيمة الاقتضائية للتعريض نقول: التعريض هو ما استعمل في معناه مقصودا به التلويح بغيره من جهة المفهوم.

1- 8- التعريض في القرآن وعلاقته بالحجاج وبالمقام:

مما لا شك فيه أن مما بهر به القرآن الكريم العرب والمخاطبين به عموما كونه لا يقتصر على أسلوب واحد، وإنما يأتي حدائق ذات بهجة من الأساليب البديعة المختلفة الطعوم والألوان، موظفا تأثيره الموحى باستغلال مخزون اللغة من حقيقة ومجاز وإخبار وإنشاء وإظهار والتفات وخطاب واستفهام ووصف ووعد ووعيد... وهو الأمر الذي جعل الخطاب القرآني يحقق غاياته العقدية والسلوكية ويغير ويحدث انقلابا ثوريا في العقائد والأفكار والتصورات من جهة كما أحدث منعرجا حاسما في تاريخ البشرية كله من جهة أخرى، وفعل في مخاطبيه فعل السحر حتى وصفه أحدهم بذلك، وقد أنشأ وضعاً جديدا في التصور والقيم كما في الواقع والممارسة سواء بسواء، فتحققت المعجزة التي تستعصي على العقول حتى وهي تتصورها مجرد تصوّر، وذلك أن يخرج كتاب أمةً كانت على هامش الحياة، وأن تنشئ بلاغته هذه الأمة إنشاءً، كان يعز عليها أن تتخيّله مجرد تخيل، فصارت تراه رأي

القيمة الحجاجية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم _____ مجلة فصل الخطاب

العين في معمعان الواقع. كل أولئك مما تكفل القرآن به في بعده الحجاجي الذي لا عهد للمخاطبين به من قبل، وهو الأمر الذي أشار إليه الدارسون القدامى والمحدثون على السواء بـ«أثره العجيب في النفوس»¹⁷.

هذا، ولأن المخاطبين بالقرآن كانوا ممن وقفوا من البلاغة على الحد، وبلغوا منها شأوا بعيدا، فقد جاء القرآن على منوالهم في الكلام، ومعهودهم في الأداء؛ ومن ذلك تنويعهم في أساليب الكلام، والمخالفة بينها وكانوا ممن يحبذون هذه الطريقة في التصريف البلاغي، لأنها أروح للنفس كما قيل أن العرب تكتي أكثر مما تصرح، لما في التكنية من تقوية للحجة وتحقيق للغرض المسوق له الكلام، فقد جاءهم القرآن بما عهدوه من كلامهم من حيث الشكل؛ أي من حيث البنية التركيبية والبيانية، ولكنه جاءهم بما لا عهد لهم به ولا طاقة من حيث المضمون والأسلوب وتأثيره العجيب في النفوس وطريقة سوقه للحجج البالغة والبراهين الساطعة في إثبات ما أراد أن يثبت، وفي إنكار ما أراد أن ينكر، فاتخذ سبيله في العدول عن المعاني والأساليب المباشرة إلى المعاني والأساليب غير المباشرة مثل التعريض والكناية و.... يتخذ كل ذلك إجراء تداوليا كي يحقق مقاصده الحجاجية المباشرة من خلال المعاني المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب، وذلك من أجل إحداث تأثير في نفوس المتلقين ومن ثم تنعطف عليه بالاستجابة والتقبل، وهذا راجع إلى التعود المقامي التداولي على مثل هذه الإجراءات في تبرير القضايا وعرض الآراء.

والتعريض من أكثر صور الاستثمار الدلالي لطاقة الإيحاء، ويتجلى هذا الأمر أكثر إذا ارتفعنا بمستوى حديثنا إلى المستوى الإبيستيمولوجي لوظيفة اللغة وحسن استثمارها عند المتكلمين بها في البعد الاستعمالي، إذ اللغة تقوم على التلميح- ومن ضمنه التعريض- أكثر مما تقوم على التصريح، وهذا راجع إلى كون الألفاظ محدودة، وأما المعاني فغير محدودة، وإقامة التوازن والانسجام البياني بين المحدود وغير المحدود لابد لتحقيقه من الموازنة بين التصريح والتلميح والحقيقة والمجاز والعدول والتنوع الدلالي، ومن هذا المنطلق يحتاج الطاعنون في لغة القرآن بأن يأتيهم بلغة تقوم على التصريح فقط، فكل لغة تقوم على الإيحاء تؤدي إلى التعدد التأويلي.

على أن هذه من أدحض الشبه التي رُمي بها القرآن، وكان ينبغي أن تكون مزية له ولبلاغته الأسرة حتى زوي عن كثير من التابعين من مفسرين وغيرهم أن القرآن جاء على

طريقة «إياك أعني واسمعي يا جارة»، وهل افتخر المتنبي إلا بالتلويح والعدول إلى المعنى المضمر المفضي إلى التأويل الذي يحير البلغاء في فهمه عندما قال:
أنام ملء جفوني عن شوا ردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
وفي بيته الآخر الذي عرف به التعريض كأبدع ما يكون التعريف ولكن على طريقة الشعراء حيث يقول:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب¹⁸.

فحمل الأساليب التي عدل فيها القرآن عن الظاهر إلى الضمني يعطي النص بعده المنفتح دوماً على سياقات التلقي، وهذا وجه من وجوه خلود إعجازه وأبدية أثره في النفوس، الأمر الذي يجعل المقاربة الحجاجية أنسب الدراسات لطبيعته وبنيته.

2-1- أسلوب التعريض في ضوء البحث التداولي المعاصر:

تتجلى النظرة الحديثة للتراث اللغوي عامة، ومحاولة الاستفادة منه في استثمار أهم مفاهيمه وإنجازاته، ووضعها في إطار المستجدات اللسانية المعاصرة، على أن ما تنتفع به هذه الأخيرة من التراث اللغوي هو مفاهيمه وإجراءاته، وإشاراته الجزئية وتلميحاته، في حين ينتفع التراث منها بالبعد الشمولي، وقوة تماسك منطقها الداخلي، ووجهة مفاهيمها ونظرياتها¹⁹، وطرحها المعمق للغة بشكل عام.

هذا، وإذا نظرنا إلى التعريض في ضوء النظريات اللسانية الكبرى التي شهدها القرن العشرون والقرن الحادي والعشرون، فإنه لا مكان له في اهتمام اللسانيات في جناحها البنيوي والتي أعرضت ونأت بجانبها عن دراسة اللغة في بعدها الاستعمالي وفق سياق التواصل، بسبب أنها لا تحفل بغير المعطيات اللسانية لبنية الملفوظ أي بما يتعلق بها من علاقات وقوانين في إطار نظام مغلق²⁰. والأمر نفسه يقال عن اللسانيات في جناحها التحويلي التوليدي الذي اهتم بدراسة اللغة في إطارها «الذهني المجرد»²¹.

هذه النقائص والاختلالات المنهجية، وهذا التضييق المفاهيمي المقتصر على «وصف اللغة بمعزل عن حالات استعمالها في الواقع الاجتماعي بحسب مقاصد الأفراد وحاجاتهم في أحوال التخاطب اليومية»²²، كل ذلك كان سببا في حدوث انعطاف في مسار الدرس اللساني المعاصر، الأمر الذي أدى إلى بزوغ فجر البحث التداولي الذي يتميز في أبسط تعاريفه بأنه يجعل البنية اللغوية متعلقة بوظيفتها في ضوء الاستعمال والقصد والسياق بين المتكلم والمخاطب.

القيمة الجاهزة لأسلوب التعريض في القرآن الكريم

وإذا كانت جدلية العلاقة بين التراث اللغوي العربي وبين اللسانيات في نظرياتها الكبرى لاسيما (البنوية والتوليدية التحويلية) قد تميزت بالتداخل حيناً، وبالتعارض أحياناً، وهي بين هذا وذاك، أفرزت بعض أوجه التشابه وأوجه الاختلاف، فأثمرت في بعضها ربطاً جنياً، وأثمرت في كثير منها حصرماً، فإن اللسانيات في جناحها التداولي، وبعد الانعطاف المنهجي الذي اتخذت سبيله في دراسة الظاهرة اللغوية، قد أتت أكلها ضعفين سواء في دراستها للغة بشكل عام، أو في استفادتها من التراث اللغوي، ولاسيما الإسلامي والعربي منه. ويتجلى ذلك في أن الكثير من المفاهيم والظواهر والقضايا اللغوية التي تركز عليها التداولية المعاصرة قد تناولها علماء العربية، واحتفوا بها، ورصدوها، وتعمقوا فيها حتى جاءوا فيها بإشارات لمحة قلّ نظيرها حتى في كثير من النظريات اللسانية الحديثة والمعاصرة، لا ينقصها في ذلك إلا النظرة الكلية والبعد الشمولي، وهذا وليد الفتوحات المعرفية والتطورات الفكرية المعاصرة.

هذا، ويقع «أسلوب التعريض» في موقع متميز من البحث التداولي المعاصر، فهو يندرج ضمن عدة مفاهيم ومبادئ تداولية كالفعل الكلامي والأقوال المضمرة والاستلزام التخاطبي والحجاج. كما يقع في موقع متميز أيضاً في استراتيجيات الخطاب، والتداولية وتحليل الخطاب وجهان لعملة واحدة في البحث اللغوي المعاصر. وسنحاول أن نبين موقع التعريض في كل المبادئ التداولية والاستراتيجيات الخطابية السابقة. ولكن قبل ذلك يحسن أن نجلي بعض الأبعاد التداولية للتعريض²³:

2-1-1- التعريض ملفوظ تركيبى:

التعريض لا يقع في الكلمة المفردة، وإنما يقع في التركيب المتصل وهو الأمر الذي يعطي البعد التخاطبي لاستعمال هذا الأسلوب.

2-1-2 - التعريض شكل من أشكال الفعل الكلامي: يعد التعريض فعلاً كلامياً

تتوفر فيه مقومات الفعل الكلامي وخصائصه، فقولنا: جئتكَ لأسلم عليك في حالة استخدامها في سياق التعريض تتضمن ملفوظاً يتمثل في جملة أي «فعلاً كلامياً» بلغة أوستين وسيرل، كما يتضمن «فعلاً متضمناً في القول» وهو (القوة الإنجازية) من وراء هذا القول المتمثلة في طلب المساعدة، كما يتضمن هذا الملفوظ (فعلاً ناتجاً عن القول)، وهو الأثر الذي يتوخى المعرض تركه في المعرض به ففي هذا التعريض قوتان إنجازيتان أولاهما قوة حرفية مباشرة غير مقصودة، وثانيتهما قوة مستلزمة غير مباشرة مقصودة.

2-1-3- التعريض خطاب تفاعلي:

التعريض أسلوب يتوجه به متكلم لمخاطب معين يقصده بالتعريض، وإلا لا يكون هناك معنى مقصود من وراء التعريض، فلا بد فيه من وجود ذوات متحاور متفاعلة أحدها المعرّض، والثاني المعرض به أو المقصود بالتعريض، ووفق ذلك لا يمكن تصور معنى تعريضي إلا باعتباره متعلقا بذات تستعمله وذات أو ذوات تتلقاه، وتحيل عليه الضمائر الموجودة في العبارة التعريضية أو الإحالات الزمانية والمكانية²⁴، أو الأبعاد الضمنية للخطاب التي يحددها السياق التفاعلي للتعريض.

2-1-4- التعريض خطاب مسيّق:

يرتبط التعريض بالسياق التخاطبي ارتباطا وطيدا، حيث لا يتجلى المعنى التعريضي المقصود إلا في ضوء السياق المقامي الذي قبل فيه القول المتضمن للتعريض، وقد سبق أن بيّنا الفرق بين الكناية والتعريض، في كون الكناية مؤشر لها في بنية الملفوظ، على حين أنّ التعريض لا يفهم إلا من السياق المقامي من جهة أننا نستدل عليها من خلال الاعتماد على علاقة استلزامية، فمن خلال بنية الملفوظ الكنائي نستدل (بلوازم قليلة أو كثيرة) على المعنى المكّن به، وإن كانت العبارة لم توضع في الأصل لإفادة ذلك المعنى، أما التعريض فإن الشيء المقصود لا يذكر لا في لفظه ولا في معناه، وإنما يذكر شيء آخر بدلا عنه، ويؤدي ذلك الشيء الآخر إلى المعنى العرفي من طريق السياق. وهو المعنى الذي جعله ابن يعقوب المغربي الركيزة الأساسية في تعريف التعريض إذ يقول في عبارة رشيدة وذات صرامة علمية ملحوظة -ربما- لم ينسج على منوالها حتى في كثير البحوث التداولية المعاصرة إذ يقول: « والتعريض أن يفهم من اللفظ معنى بالسياق والقرائن.... ويفهم منه بطريق التعريض الذي هو الإفهام بالسياق»²⁵.

ولذلك لاحظ صاحبنا «نظرية الملاءمة» أن الاستلزام المخصص يعتمد أساسا على المعلومات السياقية²⁶

2-1-5- التعريض محكوم بمعايير:

يعدّ التعريض أسلوبا لغويا ذا بعد اجتماعي محكوم بمعايير وأعراف خاصة بين المتكلم والمخاطب، أي بين المعرّض والمعرّض به، حيث ينطوي القرب المادي أو الاجتماعي أو المفاهيمي على خبرة مشتركة، يحدد من خلالها المعرض مقدار ما يجب قوله بناء على افتراض قرب المعرض به أو بعد²⁷ وهو العلاقة التواصلية التي تسمح لهما ولاسيما للمتكلم

القيمة الجاهلية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم _____ مجلة فصل الخطاب
(المعرّض) باللجوء إلى استخدام هذا الأسلوب، وهو ما يسميه جورج يول بـ «التباعد النسبي»²⁸.

2-1-6- التعريض من معاني المتكلم وليس للجملة: لقد كان مما لاحظته غرايس أن المتلفظ بالكلام يقول كلاما ويقصده، وهناك متكلم يقول كلاما ويقصد غيره، وهناك متكلم يقول كلاما ويقصد عكسه، وقد كان هذا من دواعي اكتشافه لنظرية (الاستلزام التخاطبي) أو (نظرية الاقتضاء) وأسلوب التعريض يندرج تحت هذا المجال إذ المعرّض يقول كلاما ويقصد غيره أو يلوح بغيره، وقرائن الأحوال والسياق المحيط بالعملية التواصلية هي التي تبين المقصود بالتعريض، وقد سبق أن نقلنا قول الرازي في هذا الصدد حيث يعرف التعريض أنه «أن تذكر كلاما يحتمل مقصودك ويحتمل غير مقصودك إلا أن قرائن أحوالك تؤكد حملة على مقصودك»²⁹، ففي الجزء الأول من تعريف الرازي حدد ما يخص البناء اللغوي التركيبي للجملة التعريضية، وفي الجزء الثاني من التعريف أي بعد الاستثناء بين أن قرائن الأحوال هي التي تعين على تعيين مقصود المتكلم؛ فمقصود المتكلم هو الأساس من العملية التعريضية لا ملفوظ الجملة البنيوي، (الظاهري)، ولذلك كان من أخص خصائص التداولية كما يقول جورج يول «التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم»³⁰ وهذا تلتقي التداولية بالتعريض بخيط محكم هو قصد المتكلم في خطابه المباشر أو غير المباشر.

2-1-7- التعريض ملفوظ موجّه:

أن التعريض خطاب يتوجه به متكلم معين إلى مخاطب معين من أجل غرض تواصلية معين³¹، كما أن التعريض هو ملفوظ موجه توجيهها حجاجيا، وإذا كانت (نظرية التداولية المدمجة) أو (الحجاج اللساني) عند كل من أنسكومبر وديكرو قد اعتبرت كل ملفوظ موجه توجيهها حجاجيا³² فإن التعريض من باب أولى؛ من حيث قصده إلى البعد التوجيهي للخطاب.

2-1-8- التعريض خطاب قصدي:

الملاحظ في تعريفات البلاغيين والمفسرين للتعريض يجد أن اللفظ المشترك الوحيد الثابت الذي تكرر في تعريفاتهم - على ما بعد ما بينها في اختلاف زوايا النظر والتخصص - هو القصد أو المقصود، فهذا المحدّد الأساسي للتعريض الذي كادوا يطبقون عليه، وقد أطبقوا

عليه فعلا من حيث المعنى على الرغم من اختلاف ألفاظهم، وهذا يدل على تعلق التعريض بقصد المتكلم أساسا، ولذلك كان أخفى من الكناية بهذا الاعتبار.

2-2-1- التعريض والاستلزام التخاطبي:

يرى محمد يونس علي أن: «بعض أنواع الاستلزام المعروفة عند الغربيين هي ما يصنفه الأصوليون على أنه تعريض»³³ فنظرية الاستلزام التخاطبي عند غرايس جاءت لتؤسس لنوع جديد من التواصل يمكن أن يسمى «التواصل غير المعلن» أي الضمني، وذلك بحجة أن المتكلم يقول كلاما ويقصد غيره، كما أن المخاطب يسمع كلاما ويفهم غير ما سمع.³⁴ وهذا جوهر التعريض في الحقيقة وهو يؤكد هشام عبد الله الخليفة قائلا: «التعريض هو المقابل للتلويح المخصص عند غرايس»³⁵.

2-2-2- التعريض والإضمار التخاطبي:

ينضوي التعريض بشكل من الأشكال تحت مبدأ «القول المضمر» في التداولية المعاصرة، وهذا ما يشير إليه الدكتور محمود طلحة بالقول مؤكدا: «أن التعريض يعبر بشكل واضح عن ظاهرة الإضمار التداولية المعاصرة»³⁶.

2-2-3- التعريض والاستراتيجية النصية التلميحية:

يعرف عبد الهادي الشهري الاستراتيجية التلميحية قائلا: هي الاستراتيجية التي يعبر بها المرسل عن القصد بما يغير الخطاب الحرفي لخطابه فيعبر عنه بغير أن يقف عند اللفظ مستثمرا في ذلك عناصر السياق»³⁷. وإذا نحن قارنا هذا التعريف للاستراتيجية التلميحية مع التعريفات التي سقناها للتعريض عند المفسرين والبلاغيين أدركنا أن التعريض يدخل تحت الاستراتيجية التلميحية وهي أحد استراتيجيات الخطاب الأساسية فالتعريض بهذا الاعتبار آلية لا يرتبط فيها المعنى والقصد برابط لغوي مباشر، وإنما يعتمد في بيان قصده على عناصر السياق التي يوظفها المخاطب لفهم قصد المتكلم بواسطة القرينة بتعبير البلاغيين والمفسرين، وبقرائن السياق وقصد المتكلم وتأويل المخاطب... بتعبير اللسانيات التداولية المعاصرة، ولاسيما الوظيفية منها.

3-1- التعريض والبعد الإيحائي للخطاب القرآني:

سبق أن قلنا أن التعريض كثير في القرآن كثرة تدعو إلى التأمل، وأدركنا أن القرآن الكريم يفضل الحجاج بالأساليب الضمنية أكثر من الأساليب الفصيحة إلا أن يكون السياق والمقام والبيان يستدعي غير ذلك، وهو الأمر الذي استفدناه من المرحوم عبد الله

القيمة الحجاجية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم

صولة؛ إذ يقول: «إن القرآن على الرغم من أنه كتاب دعوة إلى التوحيد والإيمان أساساً. لا نجد فيه أمراً صريحاً للناس بالإيمان (آمنوا) إلا في مواضع قليلة (18 موضعاً / فإذا قارئاً ضالة تواتر الدعوة الصريحة إلى الإيمان بارتفاع تواتر الدعوة الضمنية إليه بواسطة المفهوم المتضمن في القول.... أدركنا أن الإيمان في القرآن قد وقع التعويل عليه على السبل الضمنية أكثر من السبل الصريحة»³⁸.

ويعلل ذلك بكون المخاطب إذا انخرط في عملية تأويل الخطاب الموجه إليه يكون ألزم بالحجة، ويظهر ذلك فيما استوحاه عن برلمان بقوله: «إن إقامة الدليل على وجوب الشيء دون إيجابه يكون ألزم بالحجة من صريح الدعوة إلى وجوبه بواسطة الأمر؛ إذ الأمر لا طاقة حجاجية له على عكس ما يتبادر إلى الذهن»³⁹.

وإذا علمنا أن أسلوب التعريض من صميم السبل الضمنية للخطاب أدركنا قيمة التعريض الحجاجية، وبعده المضمر في نجاح المحاجة، ونزوع القرآن إلى الإقناع. فالقرآن الكريم كما ظهر من النماذج القليلة التي وقفنا عندها في هذا البحث، وغيرها كثير - حتى أوصله ابن عاشور إلى ما يقرب من خمسمائة آية⁴⁰ تتضمن تعريضاً في القرآن - أن القرآن يكثر فيه الإيحاء والتلويح غير المباشر والبعيد المضمر للكلام ومنه التعريض؛ وهو الأمر الذي تنبه له الجاحظ بعبقريته الفذة وحسّ البلاغي الوقاد؛ حيث يقول: «ورأينا الله إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله عنهم مبسوطاً وزاد في الكلام»⁴¹.

3-2 - القيمة الحجاجية للتعريض: نماذج من القرآن الكريم:

يحسن بنا بعدما قدمنا من تعريف للتعريض وتمييزه عن الكناية، ودور المقام في معرفته أن نذكر بعض النماذج منه في القرآن الكريم حتى يكون تصديق الذي بين يديه مما قلناه في الإشارات السابقة، مركزين على ما اتفق عليه جلّ المفسرين على أنه تعريض.

3-2-1 - النموذج الأول:

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63)﴾ [الأنبياء 62-63-64]

يقول الخولي عن هذه الآية بعد ذكر سياقها كاملاً «... وهنا وادت الحجة إبراهيم بعد أن تمهياً لها الموقف، لقد انتزع اعترافهم بأن آلهتهم عاجزة عن النطق والإفصاح عما جعلها جزاء، كما عجزت عن الدفاع عن نفسها فكان هذا السؤال الذي يحمل الكثير من

التبكيك والسخرية ما يحمل»⁴². وقال أبو السعود في تفسيره: «سلك عليه السلام مسلكا تعريضا، يؤديه إلى مقصده الذي هو إلزامهم بالحجة على أطف وجه وأحسنه، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، مع ما فيه من التوقي عن الكذب»⁴³ ويبين سيد قطب البعد الحجائي الذي واجه به إبراهيم عليه السلام القوم فهزمهم هزامن غفوتهم حتى عادوا إلى أنفسهم بالتفكر ولو قليلا، حيث قال: «ويبدو أن هذا التهمك الساخر قد هزمهم هزا، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر: (فرجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: إنكم أنتم الظالمون). وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم. وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون»⁴⁴.

3-2-2- النموذج الثاني:

قال عزمن قائل: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)﴾ [يوسف:50] فالآية تتضمن تعريضا في قول يوسف: ﴿ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ إذ إنه قال هذا القول تعريضا بقضيته مع النسوة والتي طال عليها العهد، ولذلك لما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم، وكأنه يطلب من رسول الملك كي يذكر بقضيته، إلى أين وصلت.. وكأنه يقول: ما بالي، وماذا آل إليه الأمر في قضيتي⁴⁵.

فيوسف عليه السلام لم يصرح بقوله هذا عن قضيته، وإنما عرض بها تعريضا؛ لذلك جاء تلويحه بالتعريض وهو أسلوب غير مباشر أبلغ في توصيل المراد، وهو الأمر الذي جعل الملك يفهم هذا التلويح الخفي مباشرة، وذلك بأن يسأل النسوة عن مرادتهن يوسف دون أن يسأل عن أصل القضية وتفاصيلها، وذا ينسجم مع عادة القرآن في طي الأحداث. على أن اللافت للنظر في هذه الجملة التعريضية هو إشارة يوسف إلى استرجاع السياق برمته من خلال ذكر اسم الإشارة في قوله: "اللّاتي" فهي وإن كانت وصفا للنسوة فإن قيمتها الإحالية (الإشارية) لها دور في استرجاع المقام وإحضاره أمام الملك وكأنه أمام إعادة محاكمته من جديد بناء على طلبه.

ولسنا في حاجة إلى استنتاج البعد الحجائي في هذه «المرافعة» بين يوسف عليه السلام والنسوة، فقد استعمل الحجة الدامغة في تبرئة ساحته عن هذه التهمة التي ما يزال

القيمة الجاهلية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم _____ مجلة فصل الخطاب

بسببها في السجن مظلوما، وليتجلى وجه التعريض أكثر فقد أستعمل عبارة « ما بال النسوة التي قطعن أيديهن » ولم يقل مثلا: « ما بال النسوة اللاتي راودنني».... حتى وصل بهم الأمر إلى أن قطعن أيديهن فالمرادة قد تدل فيما تدل عليه أن تكون من طرفين أو من طرف برضا الطرف الآخر أو نوع مشاركة منه، ولكن تقطيع الأيدي من طرف النسوة دلالة قاطعة أن الأمر صادر منهن فقد أغنى ذكر تقطيع الأيدي عن المرادة بدليل أن الملك سأل النسوة عن المرادة بقوله: «ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه» وكأن يوسف عليه السلام كان يريد أن يدمج أمر زوليخا في موضوع النسوة فلا تتميز عنهن بافتتانها به ومرادتها له، ويصير كيد النسوة متعددا، مع أن المرادة صادرة منها فقط، وأنه يريد أن يقيم الحجة على الملك قائلا: إن النسوة بمجرد أن دخلت علمهن فباشرن في تقطيع أيديهن إعجابا بي، فهن أخرى إلى مرادتي من امرأة العزيز التي أعيش في بيتها فهي بهذا الاعتبار أصبر منهن عن مروادتي)، يضاف إلى ذلك ويؤكد هذا التحليل منا أن الملك استعمل عبارة: «ما خطبكن إذ راودتن»، ولم يقل «إذ قطعتن»، ولو قال هذه العبارة الأخيرة لانسجمت مع (طلب) يوسف في شكله التركيبي الحرفي المباشر، وقد يكون ذلك للإشارة إلى أن من رأينه مرة فقطعن أيديهن هن أخرى أن يراودنه لو عاش معهن، وهذا تأويل محتمل، كما أن الملك ربما قصد قصدا إلى أن ينتزع الاعتراف من امرأة العزيز لأنها هي التي راودت وذكر المرادة بهذه الصيغة الدالة على الجمع إبعادا للإحراج.

على أن السياق بعد هذا وذاك يظهر جوا من (المرافعة) تعتورها حالة معقدة من الارتباك النفسي والاعتراف والاثم... كل أولئك مما يؤكد أن هذه القضية كانت مرافعة يحتاج كل معني بها من أجل تبرئة ساحته حتى ألجأ من ألجأ إلى الاعتراف، وتمت تبرئة من هو مبرا منها، وهل المرافعة إلا حجاج بامتياز، كل ذلك يظهر البعد الحجاجي في هذه الآية، ولكن منظوروا إلها في بعدها النصي المتصل، والسياق القرآني يعرضها ويصورها في أبدع تصوير وأبرع أسلوب، لا نملك في وصفه إلا أن نقول: إنه أسلوب القرآن وحده.

3-2-3 - النموذج الثالث:

قال ﷻ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْنِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود:27]
يقول ابن عاشور عن هذه الآية: فجعلوا أتباع الناس المعدودين في عاداتهم أراذل محقورين دليلا على لا ميزة له على ساداتهم الذين يلوذ بهم أشراف القوم وأقويائهم، فنفاوا

عنه سبب السيادة من جهتي ذاته وأتباعه، وذلك تعريض بأنهم لا يتبعونه لأنهم يترفعون عن مخالطة أمثالهم وأنه لو أبعدهم عنه لاتبعوه»⁴⁶.

فقوم نوح عرضوا به مرتين أولهما عندما قالوا له: « ما نراك إلا بشرا مثلنا » وهم يظنون أن من كان مثلهم لا يحق لهم دعوتهم، إنهم يظنون أن الرسول لا ينبغي أن يكون بشرا، فهم بذلك عرضوا به من جهة ذاته بتكذيبه أن يكون مرسلًا إليهم لأنه بشر مثلهم فليس بأحق بالرسالة منهم. وثانياً يكذبونه بكونه ما اتبعه إلا أراذل قومهم، وهم يقصدون ضعفاء القوم، وهم وإن كانوا ضعفاء في اعتبار قيم القوم فإنهم لأزكيا النفوس، ولكن هؤلاء المتجبرين يقيسون الناس بالمال والجاه الدنيوي. ثم إنهم أضافوا عبارة (بادي الرأي) إمعانا في التكذيب وتبريرا لموقفهم من عدم اتباعه فبادي الرأي: أي فيما يبدو لهم من الرأي دون تمحيص وتدقيق وروية.

ولا حاجة بنا إلى استخلاص البعد الحجاجي؛ إذ يكفي أنها جاءت في سياق الحوار بين رسول يدعو قومه ويحاججهم لأجل إتباعه والإيمان برسالته، وبين قوم يأبون عليه، ويتعنتون في الرد عليه واللجاج في ذلك، والحجاج يكون أعلق بالحوار بين طرفين أو أطراف متعددة، فما بالك إذا كان الحوار يدور حول خصومة في العقيدة، فلا شك أن كل طرف يكون أحرص الناس على إظهار ما يملك من حجج، على أن اختيار التعريض على الأسلوب المباشر هو الذي ينبغي أن نقف عنده بنوع من التحليل والبيان، ولكننا نرجئ الحديث عنه إلى مبحث آت، وفي هذا يقول الزمخشري بعد ذكر الآية بأنها: "تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا: هب أنك واحد من الملا ومواز لهم في المنزلة فما جعلك منهم؟، ألا ترى إلى قولهم: وما نرى لكم من فضل"⁴⁷.

3-2-4 - النموذج الرابع:

قال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (4) **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (5) [البقرة الآية: 4-5]

يقول ابن عاشور بعدما يبرر تقديم الجار والمجرور وكذلك تقديم المسند إليه الفعلي قائلا: «وفي كلا التقديمين تعريض بالمشرّكين الدهريين ونداء على انحطاط عقيدتهم»⁴⁸، ويقول الزمخشري عن الآية نفسها «وبالآخرة هم يوقنون» تعريض بأهل الكتاب، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وأن أمرهم ليس بصادر عن إيقان وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك»⁴⁹ والمفسران وإن

القيمة الحجاجية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم _____ جملة نصل الخطاب

اتفقا في جعل الآية تعريضا فقد اختلفا في تعيين المعرض بهم، فإن ابن عاشور يجعلها للمشركين الدهريين، أما الزمخشري فيجعلها تعريضا مقصودا به أهل الكتاب ونحن نميل إلى رأي هذا الأخير في أن المقصود بالتعريض هم أهل الكتاب لسبب له سياق نراه من الوجهة بمكان، وهو أن بداية الآية: «الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك» فضم الإيمان بما أنزل إلى محمد ﷺ إلى الإيمان بما أنزل من قبله وهذا الأسلوب لم يأت في القرآن إلا في سورتي البقرة والنساء ومعلوم أن السورتين نزلتا بالمدينة التي استقبل فيها القرآن أهل الكتاب بالمحاجة والبيان والدعوة إذ لو كان المقصود به الدهريين من مشركي قريش أو غيرهم لما كان للعطف فائدة، لأن مشركي قريش لم يؤمنوا بما أنزل إليه ابتداء فضلا عما أنزل من قبله،

فهذا ليس شأن قريش بقدر ما هو شأن أهل الكتاب من يهود ونصارى الذين آمنوا بأنبيائهم وأبوا أن يؤمنوا بما جاءهم به محمد ﷺ، فنزل القرآن يحاججهم ويعرض بهم في التفريق بين أنبيائه وبين تناقضهم الذي تنطوي عليه عقائدهم في التفريق بين إيمانهم بالتوراة والإنجيل وبين القرآن الكريم، وهذا التخريج يصبح - في نظرنا - الأسلوب متسقا ومنسجما في نسيج النص فلا يمكن فصله عن السياق. فعطف الإنزال بما أنزل من قبلك على ما أنزل إليك يبرز ما ينطوي عليه هذا العطف من بعد بلاغي اقتضاه السياق المتمثل في التفريق بين الإيمان بالتوراة والإنجيل والإيمان بالقرآن، والآية بهذه الصيغة أبلغ من الوجهة الحجاجية، فوظيفة أسلوب التعريض من الناحية الحجاجية هي تقويض خطاب الآخر، ودحض معتقده القائم على التفريق بين الأنبياء والرسالات السماوية، وكذلك التشكيك في أمر الآخرة، هذا إلا أنه ينبغي علينا هنا أن نسارع إلى القول بأن القرآن بعد كل ذلك يبقى طليقا من قيد الزمان والمكان، فهو حجة على كل من يفرق بين الأنبياء ورسالاتهم. وشبيه بهذا التعريض قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ» وفيها تعريض بأهل الكتاب أيضا الذين كتموا نبوة محمد ﷺ وهي عندهم في التوراة وهو قريب من التعريض في المثال السابق.

3-2-5 النموذج الخامس:

قال تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَبِيرٍ

فَقِيرٌ﴾ [القصص الآية 24]

وهذه الآية تتضمن تعريضاً من موسى عليه السلام، وذلك بذكر الفقر في سياق السقي لابنتي الرجل الصالح، فأسلوب الخطاب وإن كان إخبارياً يذكر فقره إلى الله والتجاءه إليه، إلا أن له قوتين إنجازيتين أحدهما قوة حرفية مباشرة، وهي ذكر الفقر والحاجة الدائمة إلى الله، وقوة إنجازية غير مباشرة وهي التعريض بالطلب من الله أن يغنيه، ويؤتيه الرزق ويؤويه بالزواج، ويتجلى ذلك في التعقيب على الآية مباشرة بعدها "فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُريدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ"، وهو المعنى الذي ترددنا في الإقدام عليه حتى وجدنا حسن حبنكة الميداني قد ذكره وأكدته⁵⁰، ويتجلى الوجه الحجاجي للتعريض أكثر لما قبل بالتعريض من الطرف الثاني وهو ابنة الرجل الصالح عندما قالت: «يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ».

فهذا تعريض منها بالطلب من أبيها بأن يزوجه من موسى عليه السلام لأنه يتوفر على كمال خصلتي الرجال وهما القوة والأمانة وهاتان الخصلتان لا تقولهما من تريد أجيراً بقدر ما تريد زوجاً تتوفر فيه القوة والأمانة. ولذلك فهم أبوها مباشرة لما تعرض به، وتلمح إليه تلميحا، فقال: ﴿إِنِّي أُريدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ أما البعد الحجاجي لهذا التعريض فيبدو من التحاور أولاً بين موسى والرجل الصالح، وكذا موسى والبنت، والبنت وأبيها، ثم يزيد الحجاج قوة ما ذكرته من تبرير عندما أعقبت تعريضها قائلة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وغني عن البيان بعد هذا أن هذا الأسلوب التعريضي قد تضافرت عدة قرائن نصية ومقامية على ترشيحه، فلم تكن جملة ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ بكافية وحدها على تبيانه أو احتمالاه على الأقل، وإنما يتجلى البعد التعريضي من خلال الآيات في بعدها النصي التحاوري من خلال دعاء موسى وطلب إحدى ابنتي الرجل الصالح ومحاوره هذا الشيخ معه وعرضه عليه إحدى ابنتيه ورد البنت بأن يستأجره.... كل أولئك مما أسهم في ترشيح المعنى التعريضي، ولا شك أن هذا يدل على أن أسلوب التعريض وإن كان متعلقاً بآية واحدة إلا أن معناها التعريضي لا يظهر إلا في السياق النصي المتصل.

هذا، وقد كنا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى في الإقدام على هذا التخريج للآية من كونها مسوقة للتعريض، لاسيما وأننا لم نجد ما نستضيء به في هذا الشأن من أقوال المفسرين-

القيمة الجاهلية لأسلوب التعريض في القرآن الكريم _____ مجلة فصل الخطاب

فيما اطلعنا عليه - حتى وجدنا مفسرا معاصرا تنبه إلى ذلك وهو حسن حبنكة الميداني فزادنا اطمئنانا مع اطمئناننا؛ إذ يقول: ﴿نلاحظ في دعاء موسى عليه السلام في قوله: { رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير} احتمال التعريض بحاجته إلى المأوى والرزق والزوجة، ورأى أن الله قد ساق له مقدمات ما هو بحاجة إليه، إذ قالها بصيغة الماضي، ولم يقل لما ستزل إليّ، إذ شعر أن بشائر ما هو مفتقر إليه قد ظهرت بفرحة المرأتين به لما سقى لهما، وعلم أن أباهما شيخ كبير يحتاج إلى معين. لذلك جاء في حكاية دعائه بعد قوله ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ فدلّت الفاء العاطفة على الترتيب مع التعقيب، وفي هذا إشعار بأن الله استجاب له دعاءه الذي دعا به تعريضا لا تصريحاً. ⁵¹

خاتمة:

لعل خير ما نخلص إليه من هذا البحث المقتضب هو أن التعريض من الأساليب البيانية التي تدل على ظاهرة الاتساع في اللغة كما تدل على البعد الإيحائي لها، فاللغة تعبر بالتلميح كما تعبر بالتصريح، ولقد كانت المناهج اللسانية في جناحها البنيوي والتوليدي التحويلي قاصرة دون إدراك البعد الإيحائي التلمحي للغة عندما اقتصر على دراسة اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها في الأولى ودراسة اللغة في إطارها الذهني المجرد في الثانية، حتى بزغ فجر اللسانيات التداولية ومناهج تحليل الخطاب التي فتحت آفاقا جديدة للدرس اللغوي المنفتح على دراسة الظاهرة اللغوية في بعدها الاجتماعي الاستعمالي المرتبط بمقام وظروف إنتاج الخطاب، وفي هذا الصدد التقت التداولية في كثير من أبعادها مع تراثنا العربي الزاخر مع فضل سبق له عليها، وبذلك فتحت التداولية آفاقا جديدة تلتقي فيها الأصول التراثية بالمناهج اللسانية الغربية لاسيما التداولية منها.

من هنا يقف «أسلوب التعريض» موقفا متميزا في البلاغة العربية والتداولية المعاصرة، إذ يدخل ضمن الاستراتيجية التلمحية كما يعد «فعلا كلاميا» من جهة أخرى، إضافة إلى أنه يدخل ضمن الاستلزام التخاطبي عند غرايس، وهو بين هذه وتلك بلورة للسؤال التفاعلي بين بنية المقال ومقتضيات المقام، ومادة للانسجام الخطابى النصي والتأثير الإقناعي.

مراجع البحث وإحالاته:

1- الفيروز آبادي، القاموس المحيط 834/1

- 2- الجوهري الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تح: عبد الغفور عطار، ط4 دار العلم للملايين، بيروت 1407 ص ج 1087/3
- 3- الأزهرى ، تهذيب اللغة تح: محمد عوض مرعبط1، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1424 ص 294
- 4- الراغب الأصبهاني: مفردات ألفاظ القرآن الكريم دار القلم ، دمشق ص 85/2
- 5- الإيجي ، جامع البيان في تفسير القرآن تح: عبد الحميد هندواي ، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1424 ص 169/1.
- 6- نفس المصدر ص 169/1
- 7- الثعالبي ، الكناية والتعريض تح: عائشة حسين فريد ، دار قباء ، 1418، ص 54
- 8- العلوي ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز دار الكتب الخديوية ، د ط 1914 ، ص 384/1
- 9- ينظر: القرافي ، شهاب الدين ، أنوار البروق في أنواع الفروق ، عالم الكتب دط- دت 68/3
- 10- الرازي ، مفاتيح الغيب ، دار الكتب العلمية بيروت 2000 ص 111/6
- 11- حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وفنونها وعلومها دار القلم و الدار الشامية بيروت ط1 1996 ج 2/ص 154
- 12 - جاء في القرآن «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرْضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ:» سورة البقرة 235
- 13 - ينظر: الخولي ، عبد الله إبراهيم ، التعريض في القرآن الكريم، ص: 30.
- 14- ابن الأثير، المثل السائر، تح: بدوي طبانة، ص: 57/3.
- 15- نفس المصدر: 57/3.
- 16- السبكي بهاء الدين ، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح تح: عبد الحميد هندواي المكتبة العصرية، بيروت 2003 ص 257/2
- 17 - سيد قطب، في ظلال القرآن دار الشروق لبنان مصر ط32 ص 3120
- 18 - أبو الطيب المتنبي الديوان ، دار بيروت للطباعة والنشر د ط 1983 ص 481
- 19 - ينظر : طلحة محمود، مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي من خلال شروح التلخيص، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع عمان ، الأردن ط1، 2018 ، ص 7
- 20 - ينظر: دبه الطيب اللسانيات وقضايا اللغة العربية مطبعة رويغي ، الأغواط ، الجزائر ط1، 2014، ص 156.
- 21 - صحراوي مسعود، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، ط 2011، ص 26
- 22 - نفس المرجع، ص 26.
- 23 - استفدنا في ذكر بعض هذه الأبعاد التداولية للتعريض من الدكتور محمود طلحة في كتابه «مبادئ تحليل الخطاب » وهو وإن ذكر بعضها كخصائص للخطاب إلا أننا وجدنا منها ما يناسب بحثنا وأضفنا

- إليه ما يختص به التعريض وحده أذ أن التعريض خطاب ولكنه مميز ، ينظر طلحة محمود، مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي ص18
- 24 - نفس المرجع ص 17-18
- 25 - ابن يعقوب المغربي ، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص دار الكتب العلمية د ط ، د ت ، ص 268/4
- 26 - ينظر الخليفة هشام عبد الله ، نظرية التلويح الحوارية، لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر -لونجمان ط 1 ، 2013 ، ص 414
- 27 - يول جورج التداولية تر: قصي العتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ودار الأمان الرباط ، ط 1، 2010 ص 20
- 28 - نفس المرجع ص 20.
- 29 - الرازي ، مفاتيح الغيب، ص 111/6
- 30 - يول جورج التداولية ص 19.
- 31 - استعرنا هذا التعريف الرشيق والدقيق من الدكتور مسعود صحراوي في سياق تعريفه للتداولية ، وهو يصلح لهذا المقام ينظر مسعود صحراوي التداولية عند العلماء العرب دار الطليعة ط 1 ، 2005 ، ص 26.
- 32 - شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة ، ضمن : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود ص 36.
- 33 - محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص دار المدار الإسلامي 2006 ص 178
- 34 - العياشي أدراوي الاستلزام الحوارية في التداول اللساني»
- 35 - الخليفة هشام عبد الله ، نظرية التلويح الحوارية، لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ط 1 ، 2013 ص 405
- 36 - طلحة محمود، مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي ، دار كنوز المعرفة الأردن ط 1 2018 ص 299
- 37 - عبد الهادي الشهري ، استراتيجيات الخطاب ص 371
- 38 - صولة عبد الله، الحجاج في القرآن، دار الفارابي: بيروت، ط: 2، 2007، ص: 296.
- 39 - نفس المرجع: 296.
- 40 ينظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير
41. الجاحظ، الحيوان، تج: عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط 2، د ت ، ص 94/1

- 42- الخولي ، التعريض في القرآن ص45 دار المدار الإسلامي ط1 2006 ص178
- 43- أبو السعود محمد بن محمد العمادي ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، دار إحياء التراث العربي ، د ط د ت ص76/6
- 44- سيد قطب ، في ظلال القرآن، ص2381/4
- 45- ينظر : نفس المرجع ص79.
- 46- الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير دار سحنون تونس 1997 ص48/12
- 47- الزمخشري، الكشاف ، شرح وضبط ومراجعة يوسف الحمادي مكتبة مصر، د ط د ت ص397/2
- 48- ابن عاشور ، التحرير والتنوير ص303/1
- 49- الزمخشري ، الكشاف 83/1
- 50- الميداني ، حسن حبنكة البلاغة أسسها وعلومها وفنونها، ص563/1
- 51- نفس المرجع، ص2/156.
- قائمة مصادر البحث ومراجعته:**
- القرآن الكريم.
- (1)- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: بدوي طبانة والحوافي، دار نهضة مصر، (د، ط- د، ت).
- (2)- الأزهري ، تهذيب اللغة تح: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1424.
- (3)- الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن، تح: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424.
- (4)- الثعالبي ، الكناية والتعريض تح: عائشة حسين فريد ، دار قباء، 1418.
- (5)- الخولي عبد الله إبراهيم، التعريض في القرآن الكريم، دار البصائر: القاهرة، 2004م، ط: 6. الخليفة هشام عبد الله ، نظرية التلويح الحوارية، لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر –لونجمان ط1 ، 2013
- (7)- الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (د، ط- د، ت).
- (8)- الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تح: عبد الغفور عطار، ط4 دار العلم للملايين، بيروت، 1407.
- (9)- دبه الطيب اللسانيات وقضايا اللغة العربية مطبعة رويغي ، الأغواط ، الجزائر ط1، 2014
- (10)- الرازي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
- (11)- الراغب الأصبهاني : مفردات ألفاظ القرآن الكريم دار القلم ، دمشق.
- (12)- الزمخشري، الكشاف، تح: خليل مأمون شيحا، دار الكتب العلمية، ط: 3، 1407-1987.

- (13)- أبو السعود محمد بن محمد العمادي ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، دار إحياء التراث العربي ، د ط د ت
- (14)- سيد قطب ، في ظلال القرآن دار الشروق لبنان مصر ط 32
- (15)- شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة ، ضمن : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود . جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس 1، كلية الآداب منوبة، 1997.
- (16)- الشهري عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة:، ط 1، 2004.
- (17)- صحراوي مسعود ، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، ط 1، 2011.
- (18)- صولة عبد الله، الحجاج في القرآن، دار الفارابي: بيروت، ط: 2، 2007
- (19)- طلحة محمود، ، مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي دار كنوز المعرفة ط 1 2018
- (20)- العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز دار الكتب الخديوية ، د ط 1914.
- (21)- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: نعيم عرقسوسي، دار الكتب العلمية، (د.ط- د.ت).
- (22)- القرافي ، شهاب الدين ، أنوار البروق في أنواع الفروق ، عالم الكتب دط- دت
- (23)-المتنبي أبو الطيب ،الديوان ، دار بيروت للطباعة والنشر د ط 1983
- 24 -(الميداني ، حسن حبنكة ،البلاغة العربية أسسها وفنونها وعلومها دار القلم و الدار الشامية بيروت، ط 1 1996
- (25)- ابن يعقوب المغربي ، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص
- (26)- يول جورج التداولية تر: قصي العتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ودار الأمان الرباط ، ط 1 2010،
- (27)- يونس، محمد محمد علي ، علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص دار المدار الاسلامي 2006.